جشع الاطباء

بقلم الاستاذ صدر الدين احمد

خليق بنا أن نتحدث لماماً عن جشع الاطباء بعد ما انتكسوا عن مكانتهم عند الناس . وخليق بنا ان نزعجهم قليلا بعد ما ازعجوا الناس كثيراً في غير عطف او اكتراث فكائن رأينا منهم قد اهلك عشرات من الابرياء تمديداً في مدة شفائهم : اي تمديداً في مدة استلابهم .. حتى لكأنما الامراض كنوز من ذهب ومفاتيحها بأيدي المدنفين فما يتيسر استنفادها منهم إلا باستنفاد ارواحهم معها على مهل !!

وهذا ليس عجيبا بالطبع متى اصبح الطب تجارة الى الموت الوئيد، وهذا ليس عجيباً ايضاً متى تحول الأطباء الى متاجرين بالآلام لايتورعون .. وهل رأينا لصوصاً ذاقوا حلاوة اللصاصة فاجتنبوها وشيكا من غير سجن وغرم وتنكيل ؟ .

لو كان الأطباء يدركون انهم اعوان السماء على حفظ الارواح في الارض وإن مهنتهم هي الالوهية الصغرى المتحكمة في اسرار الحياة الكبرى لاستقاموا على الطريقة المنزهة من كل دناءة ، واعتكفوا على الربوبية المودعة اليهم في ضمائرهم . ولكنهم ، لقد اساؤا ادراك انفسهم وهربوا من ضمائرهم فحاربوا الله في ابادة عباده وقاطعوه على المعاصي الاجتماعية الخارجة عن سائر حدود الخير والشهامة ونباهة الذمام .

هاهم اولئك في مستشفياتهم قاعدون ينتظرون فيما ينتظرون طائفتين من المرضاء .. احداهما ذات الثروة التي يعاينونها برفق وبشاشة ، واخرى ذات الفاقة التي يجابهونها بزجر ومخاشنة .. حتى لكأنما الثروة هي التي تجيء فتعرض تحويل نفسها اليهم .. وحتى لكأنما الفاقة هي التي تجيء كذلك فتعرض حاجة صاحبها عليهم .. فيكون الفرق عندئذ بين مرض ومرض فرقا بين ثروة وفاقة وليس إلا فرقا بين ثروة وفاقة.

وماذا ترى يغنم الفقير من مراجعتهم ؟ وكيف هم يحققون فيه الداء العميق ؟ هنا ينبغي ان ننصفهم حقا ونشكر لهم ايضا اذ يكلفون انفسهم عناء السؤال عن اسمه وعما يشكو باختصار ، ثم يلقون اليه بالوصفة المرتجلة كيفما اتفقت وماشاءت ان تكون !

ولكن الفقير الذي يفزع اليهم صفر اليدين داخل المستشفيات غير الفقير الذي يبيع اثاثه فيفزع اليهم خارجها وهل يستوي عندهم من يستعبد جشعهم بالقليل ـ ومن لايطيق ان يستعبده باقل من القليل ؟

انا لاازعم ان مسالك كل الاطباء سواسية على هذا النحو الفظيع، ولاازعم انهم جميعاً يستحقون النقد والمغاضبة والتثريب ، وانما الاكثر منهم أعنيهم واتسخط منهم واثرب عليهم واتمنى لو يستغفرون لجناياتهم قبل الفوات ،

وان انس لن انسى فاجعتي في شقيقتي منذ حوالي عام ، تلك الفاجعة التي لاتنفك تحز في نفسي وتكوي فؤادي الحزين، تلك الفاجعة التي لاتنفك تكبر في ذاكرتي وتعظم كلما ادبر ليل واقبل نهار ...

وها انا ذا ارويها على عواهنها بأمانة وبدون تنميق ومغالاة :

في المساء التاسع والعشرين من حزيران ١٩٤٦ م كانت شقيقتي العذراء تشكو صداعا في رأسها ولهيابا في حرارة جسمها ، وانتصف الليل فاشتد بها الصداع واللهاب معا ، فاستدعينا طبيباً نستوصف عنده لها ، فقرر انها مصابة بالملاريا ثم حقنها (محلول الكينا) وانصرف بدينارين عن جعالة السعي « القدمية » وعن جعالة « الحقنة العضلية » . واسفر الفجر عن خطر مستفحل ، فهرعنا الى الطبيب نفسه واخبرناه بالامر ، فنصح لنا ان نستحضر معه الطبيب « فلانا » لانه حاذق جداً ، فكان له ما اراد ولم يكن لنا مانريد ، واظطلم الليل فاظطلم الخطر معه ، فدعونا الطبيبين ايضاً .. فلم يزيدا في سوى الوصفات المتباينة ولم ننقص من جعالتيهما شيئاً ، اما في اليوم (١) الثالث فقد نصحا لنا ان ندب معهما الطبيب (فلاناً) لانه نطاسي خبير ، فكان لهما ما اراد اولم يكن لنا ما نريد. وهكذا تسحبت عشرة ايام على غير جدوى ، غير ان اليوم الحادي عشر جاءنا بجديد ... فقد انذرنا الاطباء الثلاثة بأن الداء ناجم من (التيفو) لامن « الملاريا » ، ثم بدأوا يصححون الوصفات ويستدركون الحقن ويستمطرون الدنانير

وفي صباح اليوم التاسع عشر خرجنا الى المقبره نواري فيها ضحية الاطباء .

النجف — صدر الدين أحمد

---

(١) من تاريخ بدء المرض .